

اهمية دراسة الاسناد عند المسلمين

عبدالرؤف ظفر

من الكلمات الشائعة المشهورة فى اللغة العربية : ,,آفة الاخبار رواتها ,, وهى كلمة صادقة وقضية ثابتة ؛ يشهد واقع الناس على اختلاف مللهم واديانهم ، وتباين معارفهم وثقافتهم ، بانهم لا يثقون بخبر الكذوب ، ولا يطمئنون الى رواياته وأحاديثه وان كانوا يعلمون انه قد يصدق أحيانا . بينما تراهم يتلقفون خبر الصدوق بالقبول ، ولا يجدون فى صدورهم حرجا من تصديقه فى رواياته وأحاديثه وان كانوا يعلمون أن الصدوق قد يخطئ أو يهيم أو يكذب .

لهذا فان آفة الكذب أو الوهم أو الغلط التى تعرض للخبر أو الحديث أو الرواية ، فانما مصدرها - أولا وأخيرا - هو راوى الحديث وناقله ، ومن المحال أن تجد حديثا مكذوبا أو خبرا مختلفا من غير أن يكون الراوى لذلك الحديث ، أو الناقل لهذا الخبر هو الذى أدخل عليه هذه الآفة وأورثه هذه العلة .

وإذا كان الأمر كذلك ، فان هذا يؤكد لنا صواب منهج المحدثين

فى دراستهم للاحاديث النبوية ، تلك الدراسة التى عنوا فيها أيما عناية بدراسة ,,السند,, - وهو الطريق الذى روى به الحديث - أشدّ من اعتنائهم بدراسة المتن - وهو الفاظ الحديث سواء أكانت قولية أو فعلية أو تقريرية - لأنّ صدق الحديث اذا كان مرهونا بصدق الراوى لا بدّ من الاهتمام البالغ - اذا كانت الغاية من الرواية هو صدقها ومطابقتها للامر الواقع - بمعرفة أحوال الراوى التى يتبين بها صدقه من كذبه وخطأه من صوابه .

عناية المحدثين بدراسة الأسانيد

لقد اهتم المحدثون اهتماما كبيرا بدراسة ,,الاسناد,, واكّدوا على ضرورة الالتزام به لمعرفة صحيح الروايات من منحولها ، وصدقها من كذبها حتى اعتبروا ذلك مما يوجبه الدين وتحتمه الشريعة ، يقول عبدالله بن المبارك : ,,الاسناد من الدين ، لولا الاسناد لقال من شاء ماشاء « (١) . ويرى سفيان الثورى أن الاسناد بيد المؤمن بمنزلة السلاح بيد المقاتل فيقول : ,,الاسناد سلاح المؤمن واذا لم يكن معه سلاح فبأى شىء يقاتل « (٢) . وكان الأعمش كلّما حدّث بالحديث بغير سند يقول : ,,بقى رأس المال حدثنى فلان قال حدثنا فلان عن فلان« (٣) . وكان شعبة يعتبر الاحاديث التى تروى بغير اسناد بمنزلة الطعام الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع فكان يقول : ,,كل حديث ليس فيه أنا وحدثنا فهو خل وبقل « (٤) . ويقول بمناسبة اخرى : ,,كل حديث ليس فيه حدثنا واخبرنا فهو مثل الرجل بالفلاة معه البعير ليس له خطام « (٥) .

اما الزهرى فقد كان يرى التحديث بغير اسناد جرأة على الله تعالى : ,,حدث عتبة بن ابي حكيم انه كان عند اسحاق بن ابي فروة ، وعنده الزهرى ، قال : فجعل ابن ابي فروة يقول : ,,قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم فقال له الزهري : قاتلك الله يا ابن أبي فروة ما أجراك على الله لا تسند حديثك ؟ تحدثنا بأحاديث ليس لها خطم ولا أزيمة ، (٦) .

وكان ابن شهاب (الزهري) اذا حدث أتى بالاسناد ويقول :
 ,,لا يصلح ان يرقى السطح الآ بدرجة ، (٧) .

قال الامام الشافعي : مثل الذى يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه افعى تلدغه وهو لا يدري (٨) .

قال القعنبى (ت سنة ٢٢٠ هـ أو ٢٢١ هـ) :

اذا لم يكن خبر صحيح عن الأشياخ متضح الطريق
 فلا ترفع به رأسا ودعه فانى ناصح لك يا صديقى
 واسقاط المشائخ من حديث أشد على من ثكل الشقيق
 وما فى الأرض خير من حديث له نور باسناد وثيق (٩) .

وبهذه الكلمات يتبين لنا مكانة دراسة الاسناد عند المحدثين ، ومدى اعتنائهم به ، ويكشف لنا السخاوى عن سرّ هذه العناية وهو يتحدث عن أهمية علم تاريخ الرواة من المحدثين فيقول :

,,وهو فن عظيم الوقع من الدين ، قديم النفع به للمسلمين
 لا يستغنى عنه ولا يعتنى بأعمّ منه خصوصا ما هو القصد الاعظم
 منه وهو البحث عن الرواة والفحص عن أحوالهم فى ابتدائهم
 وحالهم واستقبالهم ، لان الأحكام الاعتقادية والمسائل الفقهية
 مأخوذة من كلام الهادى من الضلالة والمبصر من العمى
 والجهالة ، والنقلة لذلك هم الوسائط بيننا وبينه والرايط فى
 تحقيق ما اوجبه وسنّه فكان التعراف بهم من الواجبات
 والتشريف بتراجمهم من المهمات ولذا قام به فى القديم
 والحديث أهل الحديث ، (١٠) .

وإذا كان الاستاذ جولد زيهر (Goldziher) وغيره من الباحثين المستشرقين يأخذون على علماء الحديث شدة اعتنائهم بدراسة الأسانيد فانما نرى طائفة من العلماء يعتبرون ذلك منقبة جليلة للأمة الاسلامية ، وخصيصة فاضلة اختصها الله بها دون سائر الأمم ، يقول الإمام ابن حزم : ،،مانقله الثقة عن الثقة حتى يبلغ الى النبي صلى الله عليه وسلم ، خص الله به المسلمين دون سائر اهل الملل كلها ،، (١١) .
قال ابن الصلاح : ،،أصل الاسناد خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة ،، (١٢) . قال ابن قتيبة ،،ليس لأمة من الأمم اسناد كاسنادهم،،
يعنى هذه الأمة (١٣) واعترف بهذا الامر سمير نجر قائلا : ان عظمة الأمة الاسلامية تتمثل فى ذكرهم لسيرة حياة علماءهم وخاصة المحدثين منهم ولا توجد أمة ولن توجد أمة تهتم بسيرة علماءها كما فعلت الأمة الاسلامية (١٤) .

ومن الأمور التى حملت علماء الحديث على البحث فى الرواة والتفتيش عن مروياتهم هو قوله تعالى : ،،...، ان جاءكم فاسق بنبأٍ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين،، (١٥) .

كما نجد فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : عن أبى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : ،،كفى بالمرء اثما ان يحدث بكل ما سمع ،، (١٦) ، قال ابن حبان : ،،فى هذا الخبر زجر للمرء ان يحدث بكل ما سمع حتى يعلم علم اليقين صحته ثم يحدث دون ما لا يصح ،، (١٧) .

بداية ظهور علم الاسناد :

بدأ الاهتمام بالاسناد والسؤال عنه فى عهد مبكر من تاريخ المسلمين ، وذلك فى أعقاب الفتنة التى نجمت بعد ست سنوات من

خلافة عثمان رضى الله عنه الى أن أودت بحياته . حيث مضت هذه الفتنة بظهور الأهواء السياسية المتعارضة ، والآراء المتعصبة مما أدى الى ظهور الكذب فى الحديث . كلّ يريد ان يؤيد فكرته ، وينصر مذهبه وهواه فلما رأى العلماء ذلك أخذوا فى البحث عن مصدر الحديث ، والسؤال عن الرجال الذين اشتركوا فى نقله وروايته وفى هذا الصدد يقول محمد بن سيرين - وهو احد كبار التابعين : ،،لم يكونوا يسئلون عن الاسناد حتى وقعت الفتنة ، فلما وقعت نظروا من كان اهل السنة ، ومن كان اهل البدع تركوا حديثه ،، (١٨) ، وفى رواية أخرى بهذه الالفاظ : ،،لم يكونوا يسئلون عن الاسناد فلما وقعت الفتنة قال سموا لنا رجالكم فينظر الى اهل السنة فيؤخذ حديثهم ينظر الى اهل البدع فلا يؤخذ حديثهم (١٩) . وقال مسلم فى صحيحه : ،،عن مجاهد قال جاء بشير العدوى الى ابن عباس فجعل يحدث ويقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فجعل ابن عباس لا يأن لحديثه ولا ينظر اليه فقال : يا ابن عباس مالى لا أراك تسمع لحديثى ، احديثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسمع فقال ابن عباس : انا كنا مرة اذا سمعنا رجلا يقول قال رسول الله ، ابتدرته ابصارنا واصغينا اليه بأذاننا فلما ركب الناس الصعبة والذلول لم نأخذ من الناس الا ما نعرف،، (٢٠) .

ويرى يحيى بن سعيد القطان : ،،ان اول من فتش عن الاسناد هو عامر الشعبي (٧ - ١٠٦ هـ) سيد التابعين فقد قرأ الربيع بن خيثم عليه حديثا قال الشعبي فقلت : من حدثك ؟ قال : عمرو بن ميمون وقلت له من حدثك ؟ فقال : أبو أيوب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال يحيى بن سعيد : وهذا اول من فتش عن الاسناد (٢١) .

ثم ازداد التأكيد على الاسناد والالاحاح فى طلبه بعد جيل الصحابة
وكبار التابعين بسبب شيوع الكذب و اتساع نطاقه على مرّ الزمن
فاصبح الاسناد ضرورة لامناص للمحدث من ذكره اذا أراد أن تقبل
روايته ، ويصدق تحديته .

فكان ابن سيرين ، وشعبة ، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ،
وسفيان الثورى وعامر الشعبى يسألون عن الاسناد ، ويفتشون عن حال
الراوى .

قال سفيان الثورى : ،،لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم
التاريخ ،، (٢٢) وروى لنا عن حفص بن غياث انه قال : ،،اذا اتهمتم
الشيخ فحاسبوه بالسنين ، يعنى احسبوا سنّ من كتب عنه وهذا كنحو
ما روينا عن اسماعيل بن عياش- قال : كنت بالعراق فأتانى أهل
الحديث فقالوا : ههنا رجل يحدث عن خالد بن معدان فأتيته فقلت :
أى سنة كتبت عن خالد بن معدان ؟ فقال : سنة ثلاث عشرة يعنى
ومائة فقلت : أنت تزعم ، انك سمعت من خالد ابن معدان يعد موته
بسبع سنين . قال اسماعيل : مات خالد سنة ست ومائة (٢٣) . وروينا
عن الحاكم ابى عبدالله قال : لما قدم علينا ابو جعفر محمد بن حاتم
الكشّى وحدث عن عبد بن حميد سألته عن مولده فذكر انه ولد سنة
ستين ومأتين فقلت لأصحابنا : سمع هذا الشيخ من عبد بن حميد يعد
موته بثلاث عشرة سنة ،، (٢٤) .

فلا عجب اذا ما اصبح السؤال عن الاسناد أمرا شائعا لا يقتصر على
أرباب العلم بل يهتم به غيرهم ايضا . فهذا اعرابى قدم على سفيان
بن عيينة يسأله : ،،ما تقول فى امرأة من الحجيج حاضت قبل ان تطوف
بالبيت ؟ فاجابه سفيان : تفعل مايفعل الحاج غير انها لا تطوف بالبيت
فقال الاعرابى هل من قدوة ؟ قال نعم . عائشة (رضى الله عنها)

حاضت قبل ان تطوف بالبیت ، فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم ان تفعل مايفعل الحاج غير الطواف . قال الاعرابي هل من بلاغ عنها ؟ قال : نعم حدثني عبدالرحمن بن القاسم عن ابيه عن عائشة (رضى الله عنها) بذلك . قال الاعرابي : لقد استسمنت القدوة واحسنت البلاغ ، والله لك بالرشاد ، (٢٥ - أ) وهكذا لم يكتف الاعرابي حتى سأل عن سند الرواية كاملا ، ولم يجد ابن عيينة فى سؤاله بأسا بل اجابه عما سأله عنه .

قال الامام مالك (رحمه الله) : ،،ان هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم . لقد ادركت سبعين ممن يحدث فما اخذت عنهم شيئا، (٢٥ - ب) .

وكان المحدثون ينظرون الى من يحدث بكل جهة قال الشافعي (رحمه الله) : ،،كان ابن سيرين وابراهيم النخعي وغير واحد من التابعين يذهبون الى أن لايقبلوا الحديث الا عمن عرف وحفظ ، وما رأيت احدا من أهل العلم بالحديث يخالف هذا المذهب ،، (٢٦) . ونعم ما أنشد ابراهيم بن حبيش :

يا طالبى العلم والروايات ان الروايات ذا آفات
لا تأخذوا العلم عن أخى تهم الا عن الجائز الشهادات
اذا رضيتم منه الامانة والسدين له طوقوا الامانات (٢٧) .
وقال الاصمعي يرثى سفيان بن عيينة :

من للحديث عن الزهرى يسنده وللحاديث عن عمرو بن دينار
ما قام من بعده من قال حدثنا الزهرى فى أهل بدو أو بأحضر(٢٨) .
كان ذكر الاسناد مبعثا الطمأنينة والارتياح وعبارة بهز بن أسد
تنطق بذلك فقد كان يقول اذا ذكر له الاسناد الصحيح : ،،هذه
شهادات الرجال العدول المرضيين بعضهم على بعض ،، (٢٩) .

ونتيجة التأكيد على الاسناد وما حظى به من اهتمام كبير التزمت به كتب الحديث التي دونت منذ النصف الأول من القرن الثاني الهجرى والتي اطلق عليها اسم ,,المسانيد,, وهو اسم ويدل دلالة واضحة على أهمية الاسناد ، وقد وصل الينا بعض هذه المسانيد، مثل ,,مسند معمر بن راشد ، (ت ١٥٢) ومسند ابى داؤد الطيالسى (ت ٢٠٤ هـ) . وقد شكلت هذه المسانيد جوهرًا أساسيا اعتمدته الكتب الستة التي ظهرت خلال القرن الثالث الهجرى .

هو امش

- ١ الف . ابن ابى حاتم الرازى ، أبو محمد عبدالرحمن ف ٣٢٧ . كتاب الجرح والتعديل القسم الأول من المجلد الأول ص ١٦ ، الطبعة الأولى مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد - الدكن الهند ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م .
- ب . مسلم ، الصحيح ، المجلد الأول ص ٤٥ ، ٥ مجلدات ، القاهرة .
- ج . الحاكم ، معرفة علوم الحديث ص ٦ . تحقيق معظم حسين دارالآفاق الجديد ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .
- ٢ ابن حبان ، محمد البستى ، كتاب المجروحين من المحدثين الضعفاء والمتروكين ، ١ ، ٢٧ ، ٣ مجلدات ، تحقيق محمود ابراهيم زايد ، دار الوعى حلب ، الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ .
- ٣ ايضا .
- ٤ الخطيب البغدادي ، ابوبكر أحمد بن على ، ف ٤٦٣ ، الكفاية فى علم الرواية ، ٢٨٣ ، دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد ، ١٣٥٧ هـ .
- ٥ الف . ابن حبان ، المجروحين ، ١ ، ٢٧ .
- ب . ابن عدى ، ابو أحمد عبدالله ، الكامل فى ضعفاء الرجال ، ١ ، ٤٨ ، ٧ مجلدات ، دارالفكر بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
- ٦ الحاكم ، ابو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابورى ، معرفة علوم الحديث ، ٦ ، تصحيح وتحقيق الدكتور معظم حسين ، الطبعة الرابعة ، دارالآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .
- ٧ ابن ابى حاتم الرازى ، ابو محمد عبدالرحمن ، كتاب الجرح والتعديل ، القسم الأول المجلد الأول ، ص ١٦ ، ٤ مجلدات ، دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد ، الطبعة الأولى ، ١٩٦١ م .
- ٨ البيهقى ، ابوبكر أحمد بن حسين مناقب الشافعى ، الجزء الأول ، ص ٢٠ ، تحقيق أحمد صقر ، جزئين ، دار التراث ، القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

- (٩) القاضي ، عياض بن موسى اليحصبي (سنة ٤١٩ هـ - ٥٤٤ هـ) الالمام الى معرفة أصول الرواية وتفيد السماع ، ص ١٩٨ ، تحقيق أحمد صقر. الطبعة الأولى، دار التراث القاهرة ، ١٩٧٠ م / ١٣٨٩ هـ .
- (١٠) السخاوى ، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن ف ٩٠٢ ، فتح المغيث ٣ ، ٨٢ - ٢٨١ ، ٣ مجلدات، دارالكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
- (١١) الف (ابن حزم ، أبو محمد على ، ف ٤٥٦ ، كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ٢ ، ٨٢ ، مكتبة الخانجي القاهرة ١٣٢١ هـ .
- (ب) الخطيب البغدادي ، ابوبكر ، الرحلة فى طلب الحديث ، ص ١٦ ، دارالكتب العلمية ، بيروت ١٩٧٥ م .
- (١٢) ابن الصلاح ، ابو عمرو عثمان ، علوم الحديث المعروف بمقدمة ٢١٥ ، تحقيق محمد راغب الطباخ ، المطبعة العلمية ، حلب الطبعة الأولى ١٣٥٠ هـ / ١٩٣١ م .
- (١٣) المنرى ، جمال الدين ابو الحجاج يوسف تهذيب الكمال فى اسماء الرجال ، ١ ، ١٦٦ ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، حققه الدكتور بشار عواد الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
- (١٤) مقدمة الاصابة فى تمييز الصحابة ، ابن حجر ، أحمد ابن على العسقلاني ، كلكتة ، الهند ، ١٨٥٦ م .
- (١٥) الحجرات ٧
- (١٦) ابو داؤد ، سليمان بن الأشعث ، سنن ابى داؤد ، المجلد الثانى ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ، تصحيح نصر الهورينى ، القاهرة ١٢٨٠ هـ .
- (١٧) ابن حبان ، المجروحين الأول ص ٧ .
- (١٨) الذهبى ، محمد بن أحمد ، ميزان الاعتدال المجلد الأول ، ص ٣ - ٤ ، ٤ مجلدات ، مطبع انوار محمد ، دهلى .
- (١٩) مسلم ، ابن الحجاج القشيري ، الجامع الصحيح المسلم مع شرح النووى المجلد الأول ص ٤٤ .
- (٢٠) مسلم ، الجامع الصحيح الأول ، ص ٤٣ .
- (٢١) الرامهرمزي ، قاضى حسين بن عبدالرحمن (٢٦٠ - ٣٤٠) المحدث الفاصل بين الراوى والواعى ٢٠٨/١ ، تحقيق الدكتور محمد الحجاج الخطيب ، دارالفكر بيروت ، ١٣٩١ هـ / ١٩٦١ م . وقد مات الربيع بن خيثم بالكوفة فى ولاية عبيدالله بن زياد عليها (ابن سعد) جلد ٦ ، ص ١٣٤ .
- (٢٢) ابن الصلاح ، علوم الحديث ، ص ٣٨٢ .
- (٢٣) ايضا ص ٣٨٢ .
- (٢٤) ايضا ص ٣٨٢ .
- (٢٥-١) الخطيب البغدادي ، الكفاية ٤٠٣ - ٤٠٤ .
- (٢٥-٢) ابن عبدالبر ، ابو عمر يوسف ، التمهيد لما فى المؤطا من المعانى والأسانيد ، المجلد الأول ، ص ٦٧ ، ٧٧ مجلدة تحقيق مصطفى ابن أحمد ومحمد عبدالكبير البكرى ، المملكة المغربية ، الطبعة الثانية ١٩٦٧ م - ١٩٨٢ م .
- (٢٦) الخطيب البغدادي ، أحمد الكفاية ١٣٣
- (٢٧) ايضا
- (٢٨) الرامهرمزي ، المحدث الفاصل بين الراوى والواعى ، ١٠١/٢ .
- (٢٩) ابن عدى ، الكامل ٤٨/١ .

